لعل الصراخ يجدي: قراءة في ومضة (سرقة) لبسام جميدة

هيفاء حماد، سوريا

نص الومضة: سرقة

صرخت طفلتي:" من سرق اللون الأصفر مني. كيف للشمس أن تشرق في لوحتي؟"

عالم الأطفال ذاك العالم البريء الذي يضفي على أيامنا البهجة والسرور والمرح. ها نحن اليوم نراه بأعيننا وقد طالته يد الغدر والخيانة... طالت ألعابه، كتبه، دفاتره، أقلامه، ألوانه. كل مقتنياته. وكل أشيائه دون رحمة. فها هي طفلتنا تصرخ من غدر طالها. فم ذاك الغدر وما ذاك المصاب الذي طال الطفلة؟

تبدأ ومضة الأستاذ بسام جميدة بالجملة الفعلية (صرخت طفلتي) ونحن على علم أكيد أن الأطفال لا يصرخون إلا إن كانوا أصحاب حق. فهم يبكون عند الألم. قد يبكون عند التأنيب. وفي كثير من الأحيان يبكون محاولة

لنيل ما يريدون. أما أن يصرخوا فهذا تحدٍ كبير... ودليل شعور بالظلم الذي يرفضونه ويرفضه الجميع. غير أننا قد نستكين. أو قد نسلك سبيلاً آخر للتخلص من الظلم الواقع علينا. أما أطفالنا فلا مكان للاستكانة لديهم ولا سبيل للرفض عندهم غير الصراخ والصراخ والصراخ. فهم عاجزون عن فعل يقومون به ولا سيما أنهم ما زالوا صغاراً. وأكثر ما يمكن أن يقوموا به هو أن يصرخوا ويصرخوا ويصرخوا. يصرخون رفضاً، يصرخون تحدياً، يصرخون استنكاراً

وها هي طفلتنا "تصرخ" وبالطبع وكما أشرت إذاً هناك رفضاً ما أو تحدياً ما أو استنكاراً ما. فم هو ذلك السبب الذي استدعى صراخها؟ بقراءة الجملة الثانية والتي نرى أنها عائدة لما قالته الصغيرة أثناء صراخها. (من سرق اللون الأصفر مني) ندرك تماماً أن الطفلة ترفض الاعتداء الذي أصابها عن طريق سرقة أحد ألوانها. فالألوان. الألعاب. والقصص هي مكونات الحياة لديها. هي روافد السعادة. فبالألوان يستطيع الطفل أن يعبر عن مكنوناته على ورقته البيضاء. وبألعابه يعيش حلمه ومستقبله. يكون الأب وتكون

الأم، ويكونان الطبيب/ة والمهندس/ة والمعلم/ة . ومع شخصيات قصصه يسافر ويلف العالم ويعيش أسعد اللحظات. فمن ذا الذي يتجرأ على أن يحرم طفلاً من سعادته. أن يشهر سكينه بوجهه سارقاً منه أحلامه؟ هل هناك من يفعلها؟ نعم صراخ الطفلة يؤكد ذلك. يؤكد أن هناك من تجرأ وسرق منها أحد ممتكاتها. فماذا سرق؟ سرق اللون الأصفر. ويالها من سرقة في عالم الأطفال! فاللون الأصفر مع الأزرق والأحمر يشكلون الألوان الأساسية التي لا يمكن الاستغناء عن أي منها. والتي بإمكاني أن أسميها ألوان الحياة. فهي التي تعطي الحياة لبقية الألوان. فبمزجها وبكميات مختلفة يمكن الحصول على كافة الألوان. في حين أنه لا يمكن الحصول عليها من أي لون آخر. فكيف لطفلتنا أن تتخلى عن أحدها؟ وهي أساس الألوان. إذاً من سرق اللون الأصفر للطفلة يدرك ذلك تماماً، ويقصد أن يضع الطفلة في عجز حيال هذا اللون بالذات. فباللون الأصفر تلون الطفلة الشمس. وجدائل صغيرتها. وسنابل القمح. تلون أجنحة الفراشات والنحل. وربما بعض أزهار الربيع. فلابد

من وجوده لتكتمل لوحتها. وبالانتقال إلى الجملة الأخيرة في الومضة(كيف للشمس أن تشرق في لوحتي؟") ندرك تماماً قصد الراوي من تلك العبارة. فهل تشرق حقاً الشموس في لوحات أطفالنا؟ أم أنهم فقط يلونون الشمس بالأصفر لأنهم اعتادوا ذلك؟ بالطبع جميع أطفالنا اعتادوا تلوين الشمس باللون الأصفر. ولكن هنا أجاد الأستاذ بسام باستخدام كلمة (تشرق) للدلالة على المستقبل الذي يُسرق من أطفالنا يوماً تلو الآخر. وما هي لوحة الصغيرة إلا حياتها وحياة ملايين الأطفال في عالمنا العربي. فاستطاع الكاتب وبجدارة وبكلمات جداً بسيطة التعبير عما أصبح أطفالنا يعيشونه من حرمان واعتداء وفقد .

فحقاً كيف للشمس أن تشرق في حياة أطفالنا. كيف للمستقبل أن يشرق في القادمات من أيامهم وقد فقدوا لونه؟

بالنسبة للمدى الزمني في هذه الومضة فهو قصير جداً يركز على لحظة زمنية واحدة تتمثل في صراخ الطفلة وما قالته أثناء صراخها.

أما عن أسلوب السرد فالومضة مروية بضميري (المتكلم والغائب) فالراوي المتكلم هنا يسلط الضوء على شخصية محددة غائبة. وعلى حدث وحيد تقوم به تلك الشخصية وهو الصراخ.

أما التعابير المستعملة في نص الومضة (صرخت. تشرق. لوحتي) فجميعها تعابير فنية جميلة تكسب الومضة مزيداً من التأويل.